الفصل الأول

الرصد التاريخي لمنهج الدعوة وتطوره عبر العصور

لا شـــك أن منهج الدعوة إلى الله تعالى يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال، فلكل زمان ملامحه، ولكل مكان خصائصه، ولكل مجتمع سماته وطبائعه.

وبتعـــبير آخـــر يـــتغير مـــنهج الدعـــوة ويتطور بحسب مقتضيات العصر وأحوال المجتمعات.

فإذا تتبعنا تاريخ الإسلام منذ بعثة النبي ﷺ إلى عصرنا هذا، واستقرأنا واقع المجتمعات والعـــصور الإســـلامية طيلة أربعة عشر قرنًا من الزمان، لوجدنا هذا الاختلاف الدعوي واضحًا تمامًا.

وهذا يقتضي أن نلقي نظرة سريعة على الظروف المحيطة بكل عصر من عصور الدعوة الإسلامية لنرى إلى أي حد تأثرت الدعوة الإسلامية في هذا العصر بتلك الظروف المحيطة به.

الظروف المحيطة بالدعوة في عصر النبوة:

حالة العرب قبل ظهور الإسلام:

إذا أردنـــا أن نرســـم صـــورة لأحوال المجتمع العربي قبل ظهور الإسلام ومجيء الدعوة الإسلامية، نقول إن الصورة العامة لهذا المجتمع كانت قاتمة الملامح على جميع المستويات:

أما الحالة السياسية للعرب، فكانت كالآتي:

- لم يكـــن للعرب حكومة أو قضاء يحتكمون إليه، أو "بوليس" يقر الأمن والنظام، أو جيش يدرأ عنهم الأخطار الخارجية.

- لم يكـــن لديهم وحدة سياسية، حيث كانت جمهرتهم بدو رحالة متفرقين في مختلف الأصقاع، متعادين متناحرين لم تضمهم وحدة شاملة، ولا ملك قوي.

-كـــذلك كثـــرت النزاعـــات بين القبائل العربية في الجاهلية بسبب الاختلاف على الـــسيادة أو التسابق على موارد الماء ومنابت الكلأ، فوقعت بينهم حروب كثيرة أريقت فيها الدماء من أشهرها حرب البسوس، وداحس والغبراء، وحروب الفجار.

-كمـــا كـــان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة لهم كل الغنم، والعبـــيد علـــيهم كـــل الغرم، وهم في عمايتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل

جانب، وما في استطاعتهم التذمر والشكوى، بل هم يسامون الحيف والجور والعذاب ألوانًا ساكتين.

وأما الحالة الاجتماعية فكانت في الحضيض من الضعف والعماية، فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصلة، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانًا، والعلاقة بين الأمَّة واهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجل اهتمامها امتلاء الخزائن من رعيتها أو جر الحروب على مناوئيها.

وتكشف لنا السيدة عائشة -رضي الله عنها- صورة من صور هذا الفساد الاجتماعي فتقول: "إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها، ثم ينكحها. ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته -إذا طهرت من طمثها-: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدًا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح يسمى: نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، وهو ابن يا فلان، فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها. ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات يكن علمًا لمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث الله محمدًا ﷺ هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح أهل الإسلام اليوم"[1].

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٢، ص(٣٨-٣٩). والحديث أخرجه البخاري في "النكاح"، باب: من قال لا نكاح إلا بولي- (٥١٢٧).

كمـــا توضح لنا سورة الأنعام والنحل والإسراء والتكوير صورًا من وأد البنات خشية العار والإنفاق:

قـــال تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْـــسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾[2].

وقال تعالى: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ**﴾[4].

وأمـــا الحالـــة الاقتـــصادية فتبعت الحالة الاجتماعية، فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تسير إلا إذا سار الأمن والسلام، وكان ذلـــك مفقـــودًا في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم. وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهـــل اليمن والحيرة ومشارف الشام؛ هذا بالإضافة إلى أن الفقر والجوع والعري كان عامًّا في المجتمع.

وأمـــا الحالـــة الدينية فكانت أسوأ حالاً؛ حيـــث كان الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهـــر من مظاهر ديـــن أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم -عليه السلام، من هذه الأصنام: اللات، والعزى، ومنـــاة، وسواع، وكانت لهم تقاليد ومراسم

---

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢) النحل: ٥٨.

(٣) الإسراء: ٣١.

(٤) التكوير: ٨.

في عبادة الأصنام منها:

-العكوف عليها والالتجاء إليها، والاستعانة بها عند الشدائد.

-الحج والطواف حولها.

-تقديم القرابين إليها والذبح والنحر لها وبأسمائها.

ولقد حفظت لنا سورة الأنعام والمائدة صورًا من هذا الشرك حيث يقول تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

بالإضافة إلى ذلك كانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين كما استطاعت الديانات اليهودية والمسيحية أن تجد لها سبيلاً إلى ربوع العرب بعدما حَرَّفت تعاليمها وشوهت معالمها.

---

(١) الأنعام: ١٣٦-١٣٨.

(٢) المائدة: ١٠٣.

(٣) يونس: ١٨.

وأمـــا الأخـــلاق عـــند العرب فقد تعارفوا واشتهروا بالكرم والوفاء بالعهد، والعزة والشجاعة والغيرة والحلم والأناة وغيرها من الفضائل المحمودة التي أقرها الإسلام.

وأما **الحالة العقلية أو الفكرية** فقد نبغ العرب في اللغة والشعر والمثل والقصص برغم كونهم أميين لا يعرفون الكتابة.

وتبوأ الشعر المكانة العظمى بين هذه الفنون حتى قيل "الشعر ديوان العرب"؛ أي يعد الـــشعر ســـجلاً ســـجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم وديانتهم وعقليتهم وأيامهم وحروبهم واشتهرت القصائد العربية القديمة والتي من بينها المعلقات والمفضليات وغيرها، وهي المثل الأعلى الخالد للشعر العربي في جميع العصور.

وعُـــدَّ الشعراء من أرقى الطبقات عقلاً وأبضعهم فكرًا، ولا أدل على ذلك من قصة إسلام الشاعر العربي الفضيل الدوسي.

مناسبة منهج الدعوة في عصر النبوة لظروف عصره:

هذه إطلالة سريعة على صورة المجتمع العربي قبل الإسلام وأحواله المختلفة التي ينتظر من الدعوة الناشئة أن تعالج أوضاعه المختلفة بحكمة وأناة واضعة في اعتبارها طبائع الناس وعاداتهم.

وهـــذا مـــا حدث بالفعل، **ففي العهد المكي** ركز الرسول الكريم ﷺ على الإصلاح الـــديني المتمـــثل في بناء العقيدة الإسلامية في النفوس ونبذ عبادة الأصنام، وتخويف الناس بيوم القيامة، وترهيبهم بما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب.

وتنزل الوحي في مكة بالسور والآيات بالسور والآيات لبيان أصول العقيدة ومعانيها مـــثل الإيمان بالله ووحدانيته في الربوبية والألوهية والإيمان بالبعث والحساب، ومآل الناس إلى الجـــنة والـــنار، وضرورة الإيمان بالرسول واتباعه ووصف آثار الله تعالى في الكون، والتدبر والاعتبار في أحوال الأمم الغابرة.

ودعـــا ﷺ كذلك إلى مكارم الأخلاق وإنصاف النساء والعبيد، والمساواة بين الفقير والغني.

كمـــا اتبع الرســـول ﷺ في تبليغ دعوته منهج السرية أولاً -نحو ثلاث سنوات- ثم

منهج الجهر بالدعوة بعد ما رأى النواة قد تصلبت، واكتمل بناؤها، وأصبحت مهيأة لتحمل أعباء الدعوة للإسلام في الأرض وعبء المواجهة الكبرى مع أعداء الدين.

كما ركز النبي ﷺ في هذه المرحلة على تربية أصحابه وتقويمهم وفق المنهج القرآني لتزكية الأنفس عن طريق تلاوة القرآن والقيام به ومجاهدة النفس في الله تعالى.

كما اختار النبي ﷺ سياسة الصبر والعفو والصفح مع أعداء الدعوة في هذه المرحلة، ولم ينشغل بشيء سوى تبليغ الدعوة وبيان مقاصدها وتربية أصحابه.

حتى إذا دخل المسلمون مرحلة جديدة -وهي مرحلة **بناء الدولة في المدينة** وإقامة المجتمع الإسلامي- رأى الرسول ﷺ ضرورة استكمال نواحي الإصلاح، وتفصيل ما أجمل في العهد المكي من أمور العبادة ومبادئ الأخلاق.

فنزل الوحي بالتشريعات والأحكام التي تضبط حياة المسلمين وتنظم علاقات الأفراد فيما بينهم وعلاقتهم بالدولة، فتأصلت أحكام العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، كما تأصلت قواعد ومبادئ الإسلام العامة والشورى والمساواة والعدل وغيرها.

لقد اشتملت آيات القرآن الكريم على الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والأدبي.

كما حرص الرسول ﷺ على الإصلاح السياسي، فجمع قبائل العرب تحت لوائه، وألف بين قلوبهم وقضى على العصبية الجاهلية، فزالت الحزازات القديمة والثارات التي بين القبائل، فخضعوا لحكم النبي ﷺ وأوامر القرآن، وقامت في بلاد العرب حكومة مركزية محترمة عزيزة الجناب، مخوفة الجانب...

وأخيرًا اهتم النبي ﷺ بالسياسة الخارجية للدولة، فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والإيمان برسالته مثل هرقل إمبراطور الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس عظيم مصر وغيرهم[1].

---

(١) انظر الحديث بالتفصيل عن منهج الدعوة في الفصل الثاني الخاص بمعالم المنهج الدعوي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

الدعوة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين:

وبانقضاء العهد النبوي الكريم، وقيام الخلافة الإسلامية الراشدة، تبدأ الدعوة الإسلامية في طـــور جديد، حيث يعمل الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان –رضي الله عنهم أجمعين– على نشر الإسلام في ربوع فارس والعراق والشام وفلسطين ومصر والتوسع في الفتوحات الإسلامية.

وحين ظهرت مشكلة الردة في عهد أبي بكر الصديق –ﷺ– تصدى لها الخليفة ومن ورائـــه جموع المسلمين لمحاربتها واستئصال شأفتها حتى تعود الكلمة العليا للإسلام وذلك بعـــدما كانـــوا يـــبدأون المرتدين بالدعوة إلى الرجوع إلى تعاليم الإسلام الحنيف، وعدم الخروج على كلمة المسلمين، وشق عصا الطاعة.

وهنا نجد أن الدعوة الإسلامية قد اتخذت سياسة الحزم تجاه هؤلاء المرتدين والمعاندين، وقـــد تجلى هذا المنهج الدعوي الواضح في موقف أبي بكر الصديق الذي عرف عنه اللين والـــرحمة، فتحول في مواجهة هذه الفتنة إلى الحزم والشدة، وهذه هي حكمة الدعوة التي تقتضي تغير المنهج وتطوره بحسب الظروف والأحوال المحيطة بها.

حتى إذا بلغ الإسلام أشده، ودخل الناس من كل حدب وصوب في الإسلام، أطلت فتن هوجاء وريح عاتية عصفت بالمسلمين أو كادت وشغلت المسلمين في أنفسهم.

بـــدأت هذه الفتن باغتيال خليفة المسلمين عثمان –ﷺ– ثم تطورت إلى انقسام حاد في صفوف المسلمين إبان خلافة علي بن أبي طالب –ﷺ–، قسم يدعون إلى علي بالبيعة وتأليـــف الكلمة على الإمام، وقسم يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان، وقسم ثالث قد اعتزل الفتنة وأبى أن يخوض في دماء المسلمين.

وهكـــذا انقـــسمت الدعوة بين هؤلاء جميعًا، وذهب كل فريق يدعو إلى الحق الذي يراه، فدعا الإمام علي لمبايعته جموع الصحابة وعلى رأسهم عبدالله بن عباس، وعمار ابن ياسر، وأبو موسى الأشعري...

ودعـــا معاوية أهل الشام إلى الثأر من قتلة عثمان أولاً، وانضم إليه رهط من الصحابة من بينهم السيدة عائشة وطلحة والزبير وكثير من المسلمين.

كـــذلك اعتـــزل بعض الصحابة الفتنة ورأوا أن يجنبوا أنفسهم شرور الفتنة ومن بين هؤلاء سعد بن أبي وقاص وابن عمر –رضي الله عنهما-.

صـــحيح أن الأمـــور قـــد تطورت بين الصحابة إلى تصادم كبير في موقعتي "الجمل" و"صفين" إلا أن ذلك لا يقدح في سيرهم أو تاريخهم بحال من الأحوال، لأنهم جميعًا كانوا مجتهدين في معرفة الحق والوصول إليه مأجورين في ذلك إن شاء الله تعالى، وإن كان فيهم بلاشـــك المصيب والمخطئ، ومن عبر عن موقف الدعوة الراشد حينما تعم الفتن، وتدلهم الأمـــور، وتلتـــبس علـــى المـــرء فلا يسعه في ذلك الحين إلا اعتزال الفتن ومسالمة جميع المسلمين، وكف الأذى عنهم.

ولم يمـــض وقت طويل حتى ظهرت فتنة أخرى حيث انشقت الخوارج والشيعة عن صـــفوف المـــسلمين وابتدعت أقوالاً غريبة وآراء شاذة في حق إخوانهم؛ فالخوارج قالت بـــتكفير مرتكبي الكبائر من المسلمين والعصاة، ونادوا بتكفير علي وعثمان ومعاوية وأبي موسى وعمرو بن العاص ورأوا وجوب الثورة على الإمام الجائر بزعمهم...

والشيعة غالوا في حب علي وآل البيت، وادعوا أن عليًّا هو الإمام الذي عينه الرسول ﷺ بنفسه ونص على تعيينه في مواقف كثيرة.

ولم يجـــد علـــي بـــن أبي طالـــب –رضي الله عنه- إزاء هـــذا الوضـــع إلا أن يواجه هؤلاء ويـــسلك معهـــم طـــريق المـــوعظة أولاً وإلا فالقتال هو الوسيلة الناجحة في رد هؤلاء عن غيِّهم وباطلهم.

وبالفعل أمر الإمام علي ابن عباس أن يجادل الخوارج ويناظرهم حتى عاد الكثير منهم إلى صفوف المسلمين.

أخـــرج عبدالـــرزاق في مصنفه أن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: لما اعتزلت الحروراء فكانـــوا في دار على حدتهم فقلت لعلي: يا أمير المؤمنين، أبرد عن الصلاة لعلي آتي هؤلاء القـــوم فـــأكلمهم. قال: إني أتخوفهم عليك. قلت: كلا إن شاء الله تعالى. قال: فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليمانية. قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة.

قال: فدخلت على قوم لم أر قوما قط أشد اجتهادا منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل ووجوههم معلمة من آثار السجود. قال: فدخلت، فقالوا: مرحبا بك يا بن عباس، ما جاء بك؟ قلت: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ عليهم نزل الوحي وهم أعلم بتأويله فقال بعضهم: لا تحدثوه. وقال بعضهم: والله لنحدثنه. قال: قلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله ﷺ معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثا. قال: قلت: وما هن؟ قالوا أولهن أنه حكم الرجال في دين الله وقد قال الله: ﴿**إن الحكم إلا لله**﴾[1]. قال: قلت: وماذا قالوا؟ وقاتل و لم يسب و لم يغنم؛ لئن كانوا كفارا لقد حلت له أموالهم، ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم. قال: قلت: وماذا قالوا؟ محا نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين. قال: قلت: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سنة نبيه ﷺ ما لا تنكرون أترجعون؟ قالوا: نعم. قال: قلت: أما قولكم حكم الرجال في دين الله فإن الله تعالى يقول: ﴿**يأيها الَّذينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ**﴾ إلى قوله: ﴿**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾[2]، وقال في المرأة وزوجها: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا**﴾[3] أنشدكم الله أحُكْمُ الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم؟ قالوا: اللهم بل في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم. قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم. قال: وأما قولكم: إنه قاتل و لم يسب و لم يغنم أتسبون أمكم عائشة أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم وخرجتم من الإسلام إن الله يقول: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾[4] فأنتم مترددون بين

---

(١) الأنعام:٥٧.

(٢) المائدة:٩٥.

(٣) النساء:٣٥.

(٤) الأحزاب:٦.

ضلالتين فاختاروا أيتهما شئتم أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم. قال: وأما قولكم: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن رسول الله ﷺ دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا فقال: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبدالله. فقال: والله إني لرسول الله حقا وإن كذبتموني، اكتب يا علي: محمد بن عبدالله فرسول اللهﷺ كان أفضل من علي ﷺ أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم. فرجع منهم عشرون ألفا وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا"[1].

وهنا ظهرت حكمة ابن عباس -ﷺ- ممثلا صورة من صور المنهج الدعوي في هذا العصر في دعوة الفرق المارقة حيث جادلهم بالسنن الثابتة لديهم التي لا يخالفون في ثبوتها ولا في دلالتها وترك جدالهم بالقرآن لما فيه من وجوه احتمال مع أخذهم بالمتشابه منهم ووقوعهم فيه.

كما نرى كيف اعتمد في مجادلتهم على بديهات العقول وثوابته، وألزمهم بالتناقض في مذهبهم، ودعاهم إلى الرجوع إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن حتى رجع كثير منهم إلى الحق والصواب، ولعل هذا الأثر يلقي بعض الضوء على منهج الإمام علي وابن عباس -رضي الله عنهم جميعًا- في الدعوة إلى الحق في هذه المرحلة.

ثم رأى الإمام ضرورة قتال بقيتهم بعد ذلك ممن لم يقبلوا الهدى و لم تنفع معهم الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة مستندًا إلى نصوص محكمة وقاطعة في وجوب قتال الخوارج، وبالفعل سجلت معركة النهروان انتصارًا حاسمًا للإمام علي -ﷺ- على الخوارج.

كما واجه الشيعة الغالية الذين ادعوا ألوهية علي -ﷺ- فأمر بإحراق قوم منهم في حفرتين، ونفى عبدالله بن سبأ إلى سباط المدائن.

---

(١) عبدالرزاق الصنعاني: المصنف- المكتب الإسلامي بيروت- الطبعة الثانية- (١٤٠٣)- (١٠/١٦٠).

وهكـــذا يأخذ عليّ على عاتقه مواجهة هؤلاء وأولئك وتسخير وسائل الدعوة كافة للقضاء عليهم.

الدعوة الإسلامية في عصر بني أمية:

ويمـــضي عهـــد الخلفاء الراشدين بموت الإمام علي بن أبي طالب على هذا النحو، ثم يتبعه عهد جديد ملئ بالخلافات والصراعات السياسية والفكرية، هو عهد الخلافة الأموية الـــتي عاشـــت نحـــو تسعين عامًا، شهد المسلمون خلالها حروبًا وثورات عدة، وأفكارًا ومـــذاهب مختلفة اتخذت من الخلاف السياسي وجهة لها ثم انغمست في مباحث العقيدة وتحولت إلى مذاهب عقدية بمرور الأيام وجدير بنا أن نستعرض واقع المجتمع الإسلامي في العهد الأموي الذي يكشف لنا موقف الدعوة من هذه الأحداث.

أمـــا الـــنظام السياسي فقد شهد تحولاً خطيرًا عما كان عليه عهد الخلفاء الراشدين، حـــيث تحول نظام الخلافة الذي يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين، إلى نظام ملكي يقـــوم على أساس التوريث، ويستند إلى السياسة أولاً، وإلى الدين ثانيًا. كما استحدثت الدولـــة الأمـــوية تقالـــيد عديدة في الحكم وكذلك في الشارات، وهي العلامات المميزة لأصـــحاب الـــسلطان، فبنى خلفاء بني أمية القصور، واتخذوا الأسرة والكراسي للجلوس عليها، وجعلوا الحراس تمشي بين أيديهم، وأوجدوا الشرطة لحراستهم... إلخ.

وأما النظام الاجتماعي فقد تغيرت الحياة الاجتماعية عما ألفه المسلمون وغيرهم من الأمم واتساع الدولة الإسلامية، ونزوح الكثير من أهل الأديان الأخرى إلى الإسلام.

ومـــن صـــور ذلك، كثرة اللهو والترف لاسيما في حياة الخلفاء، والتفنن والمبالغة في أمور المعاش من مأكل ومشرب وملبس ونحوها، وظهور مجالس الغناء والطرب التي يحييها المغنون والقيان.. إلخ.

أمـــا الحـــياة الفكرية في خلافة بني أمية فقد تطورت تطورًا سريعًا نتيجة للانحرافات السياسية والاحتكاك بطلائع الثقافات الأجنبية كاليونانية والهندية والفارسية وغيرها.

فتأصـــلت نـــزعة التكفير لدى الخوارج، لاسيما تجاه خلفـــاء بني أميـــة، لما كانوا

يعتقدونه فيهم من العبث بأموال المسلمين، واتخاذ القصور والحراس والحجاب وما إلى ذلك من مظاهر الملك التي اتخذوها عن البلاط البيزنطي، فضلاً عن عدم شرعية الخلافة الأموية.

كما أذكت حادثة استشهاد الحسين -رضي الله عنه- نفوس الشيعة، فامتزج التشيع بدمائهم، وتغلغل في أعماق قلوبهم وأصبحت عقيدة راسخة في نفوسهم، وأصبح تكفير معاوية ويزيد إضافة على الخلفاء الراشدين أصلاً كبيرًا عند أهل التشيع. بل إن الشيعة أنفسهم قد أثر فيهم مصرع الحسين، وانقسموا على أنفسهم إلى عدة فرق.

كما أفرزت الصراعات السياسية في الخلافة الأموية والثقافات الأجنبية أفكارًا ناشئة تمثلت في فكر الجبرية والقدرية والمرجئة والمعتزلة، حيث خاضت كل فرقة في الخلاف السياسي بادئ الأمر، ثم خاضت في أمور العقيدة وأحدثت في الإسلام محدثات عدة أخرجتها من إطار أهل السنة والجماعة، فخاضت الجبرية في القدر بزعامة الجهم بن صفوان، ونفت الصفات الإلهية، وقالوا أن الإنسان مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وأن الأفعال تصدر عنه كما ينبت الزرع ويحيا النبات وتمطر السماء وتجري الأنهار.

وكرد فعل لهذه المغالاة في مسألة القدر، ظهرت فرقة أخرى هي القدرية تزعم أن كل فعل للإنسان إنما هو بإرادته المستقلة عن إرادة الله تعالى، وتزعم هذه الفرقة: معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم.

وحين شاع الحديث عن مرتكب الكبيرة ومآله في الآخرة ظهرت فرقة المرجئة، فقالوا بإرجاء أمر صاحب الكبيرة إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، كما قالوا بانفصال الإيمان عن العمل، وزعموا أن الإيمان اعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان، وقالوا عبارتهم المشهورة: "لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة".

كما ظهرت المعتزلة الذين قالوا بأن مرتكب الكبيرة لا يسمى مؤمنًا ولا كافرًا، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين...

هذه صورة موجزة وإطلالة سريعة على واقع المسلمين خلال الخلافة الأموية.

وهنا يأتي السؤال: كيف واجهت الدعوة هذا الواقع؟

كيف عالجت من أوضاعه وانحرافاته؟

ومن خلال استقرائنا لهذه الفتة من التاريخ الإسلامي نستطيع أن نقول إن الدعوة في هذا العصر قد اتخذت أشكالاً وصورًا عدة تكاد تتفق جميعها مع مبادئ الإسلام وقواعده ومنهجه في الإصلاح.

من هذه الصور:

١-تنازل الإمام الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما- سنة ٤١هـ حقنًا لدماء الأمة، وإيثارًا لوحدة المسلمين والحيلولة دون تفرقهم شيعًا وأحزابًا، وقد مدحه الرسول ﷺ على صنيعه هذا، فقال: "أيها الناس: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[1].

٢-الثورات السياسية التي قام بها بعض أبناء الصحابة كثورة الإمام الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير في خلافة يزيد بن معاوية.

وهذه الثورات تعد اجتهادًا شرعيًا من قبل أصحابها، حيث رأوا أن غياب الشورى، وقيام نظام التوريث، وعدم تولية أمر الأمة للأصلح دافعٌ للتغيير والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣-الحملات الفكرية التي قام بها الأئمة والفقهاء للرد على انحرافات الفرق والمذاهب حيث اشتد نكير السلف لأفكار الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية والجبرية والمعتزلة، وحذروا من التلقي عنهم ومن مجالستهم فكان الواحد منهم كالأجرب لا يجالسه إلا أمثاله، فناقش عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله- غيلان الدمشقي وكتب إليه كتابًا يدعوه فيه إلى التمسك بالعدل، كما ناقش الإمام الأوزاعي غيلان حتى غلبه، وأمر

---

(١) أخرجه البخاري في "المناقب"، باب: علامات النبوة في الإسلام- (٣٦٢٩)، وفي غير موضع من صحيحه.

الخليفة هشام بن عبدالملك بقتل الجعد بن درهم لقوله بخلق القرآن، كما أمر بضرب عنق غيلان.

كما كان للأئمة والفقهاء أمثال الحسن البصري وسعيد بن جبير والشعبي، وابن سيرين ومكحول وزيد بن أسلم وغيرهم جهودٌ كبيرة في صد هذه الأفكار والحيلولة بينها وبين الانتشار بين المسلمين.

ونلاحظ على منهج الدعوة في هذا العصر أن أئمة أهل السنة من أمثال من ذكرنا قد قابلوا شطط العقل بصحيح النقل، وقابلوا اختلاف أهل الضلال والزيغ واضطرابهم بثبات أهل الحق واستقامة منهجهم، كما اعتمدوا في مواجهة تلك الفتن منهج الصرامة والحزم وتحذير الناس وتنفيرهم من البدع وأهلها.

الدعوة الإسلامية في العصر العباسي:

أما واقع الدولة العباسية، فلم يختلف كثيرًا عما رأيناه في الدولة الأموية من ناحية التسلط السياسي وتوريث الملك، والاعتناء بالمظاهر والماديات، إلا أن ما يميزه هو الانفتاح الثقافي على الثقافات اليونانية والفارسية خاصة أيام المأمون والمعتصم والواثق. هذا الانفتاح الذي فتح الباب على مصراعيه للأفكار الضالة والعقائد المنحرفة أن تجد لها مكانًا بين المسلمين فتطورت مبادئ الشيعة واختلطت بالعقائد المنحرفة من زرادشتية وبرهمية ومانوية وثنوية ومزدكية ويهودية ونصرانية وغيرها، وانقسمت إلى فرق متعددة لا يمت أكثرها إلى الإسلام بصلة كما تأثر علم الكلام إثر انتعاش الترجمة اليونانية من الفارسية بالمنطق اليوناني والتبست موضوعاته بمسائل الفلسفة بحيث لم يعد يتميز علم الكلام عن الفلسفة، وجعلت المعتزلة العقل هو المعتمد الأساسي في المعرفة وأولوا العقائد الإسلامية بما يتفق مع عقولهم، ونشأت الصوفية كرد فعل لإقبال الناس على الدنيا وعكوفهم على الملذات حيث عكفت طائفة من المسلمين على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها أمثال الكرخي والحافي والمحاسبي والجنيد، ثم تطورت الصوفية إلى مذهب فلسفي اختلط بنظريات هندية حلولية وإشراقية ويونانية منحرفة أدت إلى القول بالحلول عند الحلاج، ووحدة الوجود عند ابن عربي وابن الفارض وابن سبعين، والفلسفة الإشراقية

عند السهروردي، كما عظمت الشطحات الصوفية وأقوالها البدعية مثل الوجود والذوق والكشف والسماع.

كما افتتنت طائفة أخرى بالفلسفة اليونانية وخاصة آراء أرسطو وأفلاطون فأنشأوا فلسفة إسلامية على غرارها وحاولوا التوفيق بين الأفكار اليونانية المشائية وتحكيماتها العقلية المجردة وبين عقيدتهم الإسلامية، فلم تخلو فلسفتهم من الإلحاد حيث قالوا بقدم العالم وأنكروا علم الله بالجزئيات وأنكروا البعث والحشر.. إلخ.

وهكذا تطورت الفرق وتشعبت وتوسعت مقالاتها وكثر أتباعها، واختلطت بعقائد أهل الافتراق والأهواء من اليهودية والنصرانية والصابئة والمجوسية والهندية واليونانية.

كما ظهرت فرق الباطنية وطلائعها الأولى الخبيثة وتمكنت من بعض البلاد الإسلامية كالخرمية والقرامطة والعبيدية والإسماعيلية، وصارت لها دويلات أشادت البدع والكفريات ونشرت القبوريات والشركيات، وقمعت السنة في البلاد التي سيطر عليها هؤلاء الطغاة.

وظهرت فرق كلامية أخرى حاولت التقريب بين مناهج السلف ومناهج أهل الكلام كالأشاعرة والماتريدية ونجحت في بعض مواقفها إلا أنها مع الزمن مالت إلى أصول الجهمية والفلاسفة والصوفية.

هذا هو الواقع الفكري إبان الخلافة العباسية والتي استمرت زهاء ثمانية قرون.

موقف الدعوة من الفرق المبتدعة في العصر العباسي:

لقد نجحت الدعوة في التصدي لهذه الانحرافات على مدى هذه القرون؛ فقد تصدى أهل السنة من أصحاب الحديث كالإمام البخاري ومسلم وابن حنبل وأبو داود وابن خزيمة وابن بطة واللالكائي وغيرهم لعلماء الكلام الذين خاضوا في صفات الله تعالى والإيمان بالقدر، وتميز الإمام أحمد بن حنبل في محنة خلق القرآن بموقفه الحازم الصامد، كما تصدى أهل الفقه كالإمام مالك وأبو حنيفة والشافعي للمعتزلة وردوا عليهم شططهم ونشروا السنة وأقاموا الحجة.

وتصدى أهل الكلام كالإمام الغزالي والأشعري والباقلاني لشطحات المعتزلة والصوفية

والفلاسفة وأظهروا عوار أفكارهم.

نلاحظ على منهج الدعوة في هذه الفترة العصيبة أن أئمة أهل السنة قد عملوا على التنفير من أهل الكلام والجدل واشتد نكير الأئمة عليهم في ذلك، ونهوا الناس على الخوض في البدع واتباع الشهوات والتمسك بالسنن والآثار وصحيح النقل لمواجهة زيغ العقل، ويعد هذا موقفًا ثابتًا لأهل السنة في جميع العصور.

وفي القرون السادس والسابع والثامن قيض الله تعالى ابن تيمية والشاطبي وابن القيم وابن خلدون وابن رشد، للتصدي لجحافل البدع وعساكر الضلالة من أهل الكلام والفلاسفة والباطنية والصوفية واليهود والنصارى والصابئة.

الدعوة الإسلامية في الخلافة العثمانية:

وتمضي الخلافة العباسية على هذا الحال، ثم يكتب الله التمكين لآل عثمان زمنًا طويلاً، وتنهض الدولة الإسلامية في ظل الخلافة العثمانية في كافة المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والإعلامية وغيرها ثم يعتريها داء الأمم، ويتبدل حالها، فينتشر الظلم في ربوعها، وينحرف مفهوم الولاء والبراء عن ولاة أمورها، وتتمكن الصوفية المنحرفة من أفكارها وعقائدها، وتنتشر مظاهر الشرك والبدع والخرافات في أنحائها، ويسود الاختلاف والفرقة بين زعمائها وسلاطينها، وينغمس ملوكها في الترف والشهوات، وتغلق باب الاجتهاد، وتسود العصبية المذهبية، وينحصر مفهوم الصلاة في الشعائر التعبدية فقط، وتنشط الفرق المنحرفة كالشيعة الاثنى عشرية والدروز والنصيرية والإسماعيلية والقاديانية والبهائية في الترويج لأفكارها.

"لم تكن هذه الأدواء مقتصرة على تركيا وحدها، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصابًا بالجدب العلمي وشبه شلل فكري، قد أخذه الإعياء والفتور، واستولى عليه النعاس، ولعل القرن العاشر هو أشد قرون الخمود والتقليد والمحاكاة وذلك في العلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم.. إلخ.

أما العالم الغربي؛ فقد استيقظ من هجعته الطويلة، وهب من مرقده مجنونًا، يتدارك

زمـــان الغفلـــة، والجهل، ويعدو إلى غايته، بل يطير إليها بكل جناح، فانفتح له فتوحات جديـــدة في كل علم وفن، وسخر قوى الطبيعة، ووقف على أسرار الكون وكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة، ونبغ في فترة قصيرة رجال ومبتكرون أمثال:

كوبرنيكس، وبرنو، وغليليو، وكبلر، ونيوتن، وفاسكودجاما، ومجلن وغيرهم..

وأمـــام هـــذا الواقـــع المريـــر الـــذي يعيشه العالم الإسلامي كان لابد للدعـــوات الإصـــلاحيـــة أن تظهر بقوة، وتوقظ العالم الإسلامي من سباته، وتأخذ بيده إلى النهضة والتقدم من جديد.

وبالفعـــل ظهـــرت الدعوة الوهابية[1] في قلب الجزيرة العربية، وأخذ الشيخ محمد بن عـــبدالوهاب علـــى عاتقـــه محاربة الاستبداد والجمود والتقليد في مختلف ميادين السياسة والاجتماع والدين، وأعلن عن مبادئه التي تمثلت في:

١-تنقية العقيدة الإسلامية من مفاهيم الجبرية والاتحاد والحلول ووحدة الوجود.

٢-تنقـــية الفكر الإسلامي من مفهوم التقليد والجمود، وفتح باب الاجتهاد والتماس الحلول لمختلف قضايا المجتمع من المصادر الأصلية وهي القرآن والسنة والإجماع.

٣-التوسل والاستغاثة والشفاعة لا تكون بغير الله.

٤-ضـــرورة استئناف العرب لدورهم في عمل لواء الدعوة إلى الإسلام وقيادة حركة اليقظة وتصحيح المفاهيم.

ولا تـــزال هذه الدعوة المباركة ممتدة في الواقع المعاصر في صورة الاتجاه السلفي الذي يعد امتدادًا لهذه الدعوة المباركة.

وظهـــر الألوسي في العراق داعيًا إلى تجديد دعوة التوحيد وتصحيح المفاهيم في مجال

---

(١) ســـيأتي الحديث عن هذه الدعوة وغيرها من الدعوات التي ظهرت في العصر الحديث بالتفصيل باعتبارها إفرازات للواقع تأثرت بالعوامل الخارجية والداخلية التي أثرت في مسيرة الدعوة وأدت إلى تطـــورها في العـــصر الحديث، انظر ذلك تفصيلاً في الفصل الثالث بعنوان: التطوير في منهج الدعوة ووسائلها في الواقع المعاصر.

الفقـــه والتـــصوف والعقائد[1]، كما ظهر في صنعاء الإمام الشوكاني داعيًا إلى الاجتهاد وترك التقليد، والتعصب المذهبي، والرجوع إلى الكتاب والسنة.

كمـــا ظهرت الدعوة إلى التصوف السني من خلال السنوسي والمهدي، واستهدفت تحرير التصوف من قيود الجبرية.."[2].

لم يقتـــصر الإصلاح على الإصلاح الديني فحسب، بل ظهرت دعوات إصلاحية في ميادين أخرى:

-ففي ميدان الفكر السياسي والاجتماعي ظهر رفاعة الطهطاوي في مصر وخير الدين التونسي في تونس.

-وفي ميدان الوحدة الإسلامية السياسية ظهر جمال الدين الأفغاني.

-في ميدان اللغة العربية ودورها في مقاومة الاستعمار ظهر عبدالرحمن الكواكبي.

-وفي الميدان السياسي الوطني ظهر مصطفى كامل.

-وفي ميدان العلم والحضارة ظهر فريد وجدي.

-وفي ميدان التربية والتعليم ظهر محمد عبده ومدرسة المنار.

وهكـــذا شـــقت الدعوة الإسلامية طريقها في مختلف مناحي الحياة على اختلاف في منهج الدعوة وطريقة الإصلاح[3].

وعلـــى اخـــتلاف أصحاب هذه الدعوات من حيث الاقتراب أو الابتعاد عن منهج الدعوة الراشدة.

ويلاحـــظ على منهج الدعوة في هذه الفترة أنها قد تنوعت صورها وأشكالها ومجالاتها

---

(١) هـــذا على الرغم مما في مؤلفاته وتفسيره خاصة من اضطراب وخلط في الاعتقاد بين منهج أهل الـــسنة وغيرهـــم من أصحاب المناهج الفاسدة؛ حيث يتكرر في تفسيره تعظيم ابن عربي الحلولي والإشادة به مرارًا.

(٢) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- مطابع علي بن علي- الدوحة- الطبعة العاشرة- ١٣٩٤هـــ-١٩٧٤م- (١٦٥-١٦٦).

(٣) انظر أنو الجندي: اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار- دار الاعتصام- القاهرة- (٣٥).

فلم تقتصر على مجال واحد بل شملت جميع مناحي الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية وغير ذلك، مع الميل إلى مخاطبة العقل، والإفادة من معطيات العصر ومواجهة تحدياته.

هذه هي مناهج الدعوة في العصور الإسلامية السابقة بدءا من العهد النبوي، وحتى الخلافة العثمانية.

ولقد تطورت الدعوة أيما تطور بعد سقوط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤، وتفتت العالم الإسلامي الكبير إلى دول ودويلات، وانتشار الأفكار المنحرفة والمذاهب الوضعية؛ كالماركسية والوجودية، والعلمانية، والصهيونية، والماسونية، بين أبنائه، واستزاف الموارد الاقتصادية لأراضيه، فظهرت الصحوة الإسلامية من جديد، وتعددت مناهج الدعوة في الإصلاح والتغيير[1]، فظهرت جماعة الإخوان المسلمين بمصر، وهي جماعة إسلامية شمولية -لها إيجابياتها وسلبياتها- تنادي بالعودة إلى الإسلام بشموليته لمناحي الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والتربوية، ثم انتشرت هذه الجماعة في مختلف أقطار العالم الإسلامي والغربي بل والأوروبي والأمريكي.

وظهرت في شبه القارة الهندية جماعتا التبليغ والدعوة والجماعة الإسلامية[2] -بما لهما من المزايا وما عليهما من المآخذ-، حيث تركز الأولى على جانب الموعظة، ونقل المسلم من بيئة الغفلة والمعصية إلى بيئة الطاعة لله ولرسوله ﷺ، ونقل الكافر من بيئة الكفر إلى بيئة الإيمان، والالتزام بأوامر وفرائض الإسلام وسنة الرسول ﷺ، وتعنى الثانية بالإصلاح الشمولي للإسلام على غرار جماعة الإخوان المسلمين.

وكل هذا سنتناوله بالتفصيل في الفصل الثالث.

---

(١) سوف نقف على ذلك تفصيلا في الفصل الثالث بعنوان: (التطوير في منهج الدعوة ووسائلها في الواقع المعاصر).

(٢) سيأتي الحديث عنهما كذلك تفصيلاً في الفصل الثالث من البحث.

خاتمة: استنتاج وتعقيب حول مناهج الدعوة ومقاصدها بين الإجمال والتفصيل:

سبق أن بينا مقاصد الدعوة تتمثل في الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وتقواه، وطاعة رسله، وتزكية النفس وإصلاحها، وقلنا: إن هذه المقاصد ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وإنما يدخل التغير والتطور في وسائل عرض تلك المقاصد، ومن الأمور التي تختلف فيها هذه الوسائل اختلاف العرض بين الإجمال والتفصيل بحسب اختلاف البيئات والعصور.

ونقصد بذلك ما يعرض لمقاصد الدعوة وحقيقتها وموضوعها من الإجمال لبعض موضوعاتها، أو تفصيل الكلام فيه بحسب الحاجة إلى ذلك بسبب ظروف كل عصر ومصر.

وهذا أمر ينبغي النظر إليه بعين الاهتمام ونحن بصدد الحديث عن تطوير منهج الدعوة ووسائلها، وتجديد الخطاب الديني الدعوي الذي سبق أن بينا أن اختلافه ضرورة يقتضيها اختلاف الظروف الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية...إلخ في عصر معين عن العصر السابق واللاحق، وفي قطر معين عن غيره من الأقطار.

حيث تبين لنا من خلال ذلك العرض التاريخي لمسيرة الدعوة وتطورها عبر العصور كيف تطورت وتنوعت مناهج الدعوة ووسائلها في عرض مقاصد الدعوة وموضوعاتها بين الإجمال لبعض الموضوعات وتفصيل بعضها الآخر على مدار العصور المختلفة.

فقد رأينا كيف تركزت الدعوة في عصر النبوة حول المقاصد الأساسية للدعوة الإسلامية من الدعوة إلى: توحيد الله تعالى وعبادته وتقواه، وطاعة رسله، وتزكية الأنفس وإصلاحها، في قصد وسماحة وسهولة، دون استخدام الأساليب المنطقية والأدلة الكلامية، ودون تشقيق وتفريع للأمور فيما لا يعود على المسلم بنفع في دينه، ولا تزكية لقلبه.

ثم لم تلبث أن أطلت الفتن برأسها، وعرضت الشبهات للمرتدين ومانعي الزكاة؛ حيث عرضت شبهة أنهم كانوا يؤدون الزكاة للنبي ﷺ وأن النبي ﷺ هو المأمور بأخذ

الـــزكاة منهم والدعاء لهم لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَـــلِّ عَلَـــيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. ومن ثم لا يجب عليهم أداؤها لغيره.

وكـــان الموقف الدعوي الثابت لأبي بكر الصديق ﷺ ومن معه من المؤمنين هو تجلية هذه الشبهة للناس وردهم إلى الحق طوعًا أو كرهًا.

وعلـــى كـــل لم يختلف منهج الدعوة في شيء يذكر في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر عمـــا كان عليه في عهد النبي ﷺ، سوى ما ذكرنا في عهد أبي بكر، وكذلك ما جنح إليه عمر ﷺ من الأخذ بالشدة والحزم لما وجد في الناس من جنوح إلى الزيغ عن الحق، وميل بعضهم إلى التلاعب بعض الشيء[2].

ومنذ نهاية عهد عثمان ﷺ بدأت الفتن تترى وتتابع، وظهرت البدع وتكلم الناس في الخـــروج والتشيع والإرجاء، فخرجت الخوارج ببدعة التكفير بفهم ظاهري سقيم يأخذ بعـــض نـــصوص الكـــتاب والسنة ويترك بعضها، وبل ويضرب نصوص الكتاب والسنة بعضها ببعض.

وظهـــر التـــشيع لعلـــي وآل البيت –رضي الله عنهم جميعًا– وغالى الناس في محبتهم والانتصار لهم وادعاء أحقيتهم بالخلافة، بل بلغ الأمر بغلاة الشيعة إلى حد ادعاء الألوهية في علي ﷺ.

واختلف الناس إزاء الفتنة التي جرت بين علي ومعاوية ومن بعدهما، فمنهم من انتصر ومـــال إلى أحد الفريقين، ومنهم من خرج على كلا الفريقين وكفرهم جميعًا كالخوارج، ومنهم من أرجأ الحكم على الفريقين، ومن ثم ظهرت بوادر الإرجاء.

---

(١) التوبة:١٠٣.

(٢) ذكـــر مـــسلم في صحيحه أن ابن عباس قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم. [أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، (ح١٤٧٢)].

فتكلم الناس في فاعل الكبيرة، منهم من يكفره وهم الخوارج، ومنهم من يرجئ أمره وهم المرجئة، ومنهم من يجعله في منزلة بين المنزلتين وهم المعتزلة.

طريقة الخوارج ومنهج السلف في ردها:

وتمسك الخوارج بظواهر القرآن واضطربوا وهلكوا عند متشابهه، وأنكروا كثيرًا من السنن، وتمكسوا بطائفة من النصوص من المتشابه، وأهملوا المحكم و لم يلتفتوا إليه أو تأولوه على غير وجهه، ولذا اختلفت طريقة السلف في موقفهم ومنهجهم الدعوي إزاء الخوارج فلم يجادلوهم بالقرآن؛ لأنه حمال ذو وجوه والخوارج يسيئون فهمه، ويهلكون في متشابهه، وإنما جادلوهم بالسنن الثابتة لديهم التي يقرون بها، وبما استقر في العقول من البديهيات الفطرية، ويتبين لنا ذلك من خلال مجادلة ابن عباس ﷺ للخوارج ودعوتهم إلى الرجوع إلى قواعد الإسلام الصحيحة وما عليه أهل السنة والجماعة[1].

فنلاحظ كيف عدل عن القرآن الذي يلتبس على الخصم إلى السنة الصريحة الثابتة التي لا اختلاف فيها ولا التباس.

كما نلاحظ كيف استخدم حجج العقول وبديهياته المستقرة فيه كقولهم لهم: "أتسبون أمّكم"، كذلك نلاحظ كيف أحسن ترتيب كلامه بطريقة منطقية سليمة تقود فيها المقدمات المسلم بها إلى النتائج الصحيحة؛ حيث يبدأ من مقدمات يسلم بها الخصم لينتهي به إلى النتيجة التي لا يستطيع الفكاك عنها.

كذلك نلاحظ كيف سلك في دعوته سبيل الجدال بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن بلا تسفيه للخصم ولا شطط ولا تجاوز ولا تحقير ولا سخرية، مع أن الخوارج من أرذل خلق الله وأقبحهم ونعتهم النبي ﷺ بأنهم "كلاب أهل النار"[2].

طريقة المعتزلة ومنهج السلف في ردها:

---

(١) سبق عرض مناظرة ابن عباس مع الخوارج فيما سبق.

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٤/٣٥٥)، وابن ماجه في "سننه" (١٧٣) من حديث ابن أبي أوفى ﷺ، وقال البوصيري في "الزوائد" (١/٢٥): "رجاله ثقات إلا أنه منقطع" ولكن صححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (٣٣٤٧).

لم يختلف موقف المعتزلة كثيرًا عن موقف الخوارج في التمسك بالمتشابه الذي يوافق أهواءهم، وإهمال النصوص المحكمة الواضحة البينة أو تأويلها على غير وجهها.

وزاد المعتزلة على الخوارج بتشقيق المسائل وتفريعها، وكثرة الجدال، والإطالة بالحجج الكلامية والأقيسة المنطقية، والأساليب الخطابية والبرهانية والعقلية.

وقادهم هذه الطريقة إلى اعتبار العقل أصلا يحاكم إليه الشرع والنقل، فما قبلته عقولهم من نصوص الوحي قبلوه، وما أعيا عقولهم رفضوه وتركوه، وليس أدل على ذلك من قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين.

لقد قادهم عقولهم المريضة إلى إنكار صفات الله تعالى، فأنكروا الصفات وعطلوا الذات بدعوى التوحيد، وذلك لشبهة سقيمة سخيفة وهي أنهم إذا أثبتوا الصفات مع الذات فإنه يلزم من ذلك تعدد القدماء، وهذا يناقض التوحيد، فتصوروا بعقولهم المريضة ذاتا مجردة عن الصفات، فوقعوا بذلك فيما أنكره السلف على الجهمية من قبل وردوه عليهم من جحد الصفات وتعطيلها.

وحاول خلفهم من الأشاعرة فيما بعد التوسط في الأمر فلجئوا إلى التأويل، فصرفوا الصفات عن حقيقتها إلى معان مجازية لا علم لهم بها، فلم يعد ذلك أن يكون ضربا من التعطيل كذلك.

وخاض المعتزلة كذلك في أمر القدر فأنكروا خلق الله تعالى لأفعال العباد، وجعلوا العبد خالق أفعاله فوقعوا فيما فروا منه من القول بما يناقض التوحيد؛ لأنهم أشركوا العبد مع الرب في صفة من أخص صفاته.

ولا نريد أن نخوض هنا في تفاصيل بدعة المعتزلة وحكاية أصولهم.

وكانت وسيلة المعتزلة لنشر بدعتهم هي إتقان اللغة، والاهتمام بتعلم الفصاحة والبيان والبراعة فيهما، فكانوا يدربون الشباب على الخطابة وقوّة التأثير في المخاطبين بمختلف وسائل التأثير والإقناع البيانية والخطابية والبرهانية العقلية وغير ذلك.

ومن أجل ذلك تعلموا المنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية وأدلة المناطقة والمتكلمين

وحججهم وبراهينهم.

أما عن منهج السلف في رد هذه البدعة فنلاحظ أنهم قد ردّوا كلام هذه الفرق المبتدعة جميعًا إلى الأصول المحكمة في الكتاب والسنة، وما عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

واضطر السلف إلى الرد على تلك القضايا والمسائل المبتدعة التي ما كانوا يتحدثون فيها من قبل ولا كانوا يشغلون الناس بها، فدخلت هذه القضايا في موضوع الدعوة آنذاك ولم يكتف السلف بالعرض الإجمالي لمقاصد الدعوة بأن يأمروا الناس بتوحيد الله تعالى وعبادته، بل كانوا يبينون لهم حقيقة التوحيد وما يقتضيه من إثبات الصفات لله تعالى بغير نفي ولا تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل...إلخ، ويردون على ما ابتدعته الفرق الضالة في ذلك من القول بنفي الصفات أو تأويلها أو إثبات بعضها ونفي البعض الآخر وغير ذلك، والرد على شبهاتهم في ذلك ردًّا مفصلاً.

غير أننا نلاحظ أن السلف لم يترلقوا إلى مجاراة هذه الفرق في وسائلهم البعيدة عن روح الشريعة وطبيعة هذا الدين السمحة السهلة، فلم يجاروهم في اللجوء إلى الأدلة المنطقية الأرسطية، ولم يحاكموهم إلى الفلسفة اليونانية ولا إلى الحجج الكلامية، بل كانوا يردون تلك البدع والشبهات بالكتاب والسنة وبدائه العقول.

والذي نريد التأكيد عليه هنا هو اتساع موضوعات الدعوة ومقاصدها في تلك العصور لتشمل الرد على بدع هذه الفرق جميعًا من الجهمية والقدرية والمعتزلة والشيعة والخوارج وغيرهم... فاضطروا لذلك أن يفصلوا الكلام من كثير من القضايا التي لم يكونوا يعرضون إليها فيما قبل.

تطوير موضوعات الدعوة من حيث الإجمال والتفصيل في العصر الحديث والواقع المعاصر:

سنعرض للمؤثرات الخارجية والداخلية التي أثرت على مسيرة الدعوة الإسلامية وطبيعة موضوعاتها ومقاصدها التفصيلية في العصر الحديث، مما يقتضي بالضرورة تطوير الخطاب الديني الدعوي في موضوعاته وتفصيل مقاصده في هذا العصر.

فـــإذا كانـــت المقاصد الأساسية للدعوة هي هي لا تتغير بتغير العصور، فلاشك أن تفاصيل تلك المقاصد وموضوعاتها مما تعرض الحاجة لإجمال بعضه وتفصيل بعضه بحسب الحاجـــة لمـــا يجد في الواقع من القضايا، وما يطوى فيه من المباحث والقضايا التي كانت ســـائدة ومسيطرة في عصر من العصور؛ مثل: قضية خلق القرآن التي فرضت نفسها طيلة أو أغلـــب العـــصر العباسي على طوله، وتصدى لها الإمام أحمد ومن تبعه من أهل السنة بالتزام المنهج السلفي القائم على التمسك بالنصوص والذي سبق ذكر بعض ملامحه.

أقول: لما كان النظر فيما يدعا إليه الناس من ذلك من جهة الإجمال والتفصيل، يرجع إلى نظر الداعي واجتهاده في كيفية عرض تلك المقاصد لا جرم كان ذلك أدخل في منهج الدعوة لا في مقاصدها، ومن ثم قُبل فيه الاختلاف والتنوع.

ولذا سوف نعالج هذا الموضوع في الحديث عن منهج الدعوة، فنبين ما حدث فيه من اختلاف وتطور عبر العصور بحسب اختلاف أحوال المدعوين وظروفهم المختلفة.